

دراسة حول حقيقة زهديات أبي العتاهية

زهرا سعیدی*

الملخص

يتطرق هذا المقال إلى حقيقة الزهد ومفهومه عند الشاعر أبي العتاهية. أكان أبو العتاهية زاهداً حقيقياً أم اتخذه كفنٍ شعري يتفنن فيه وهل كان صادقاً في زهدياته وهل يكون زهده إسلامياً أو يقرب من مذهب الفلاسفة الذين لا يؤمنون بالبعث أى من مذهب الزنادقة. كما نتعرف في المقال على آراء معاصري أبي العتاهية الذين شككوا في زهده واتهموه بالزندقة والبخل.

ثم نبين آراء الباحثين الآخرين الذين يرون أن زهده إسلامي، ونفسر آراءهم وللتفسير الصحيح لهذه الآراء نبدأ بإيضاح دوافع زهده وأسبابه ومصادره وتاريخ حياته حتى نجيب عن الأسئلة جواباً مقنعاً ونبين حقيقة زهده.

الكلمات الدلالية: الزهد الإسلامي، تقوى الله، ذم الدنيا، ذكر البعث.

* خريجة جامعة آزاد الإسلامية في قم.

Z_Saeidi@yahoo.com

تاريخ القبول: ١٧/١٠/١٣٨٩ هـ. ش

تاريخ الوصول: ١٨/٣/١٣٨٩ هـ. ش

www.SID.ir



المقدمة

إنّ الزهد في العصر العباسي نشأ بتأثير كثرة الترف والدعوة إلى الرجوع إلى البساطة وتغليب إلى جانب الفقراء ونقد المجتمع، على أنّ في الشعر جانباً من جوانب الدين الذي يوجب البساطة في كلّ شيء. (خفاجي، ١٩٨١م: ٢٠) وحين انتشرت موجة الفساد والتحلل في المجتمع الإسلامي خلال هذا العصر نشط أئمة آل البيت والصالحون من وعظ وزهاد في دعوة الناس إلى حياة التقوى والصلاح وتحذيرهم من السقوط في أحوال الأهواء والشهوات وتذكيرهم بحقيقة الدنيا واليوم الآخر. (آذرشب، ١٣٨٢ق: ٤٤) وكما قد وفرّ الانقلاب العباسي العرب رخاء العيش وامتدّت موجة من الترف فينشد الشعراء للناس أغاني المجون، اندفقت في الوقت نفسه على بلاد العرب مجارى الحكمة فنشأت في كلّ ذلك نزعة زهدية تواصل الحركة التي نجدها في الأدب العربي منذ أقدم عصوره وكان زعيم هذه النزعة في العهد العباسي أبا العتاهية. (آذرشب، ١٣٨٢ق: ٥٠) وقصدي من كتابة هذه المقالة تبين حقيقة زهد أبي العتاهية ومفهومه عند الشاعر. وهل أنشد قصائده في الزهد تعبيراً من أحاسيسه الدينية أم أنشدها رغبة في الفن الزهدى فحسب كما قصد معاصروه من الشعراء أغراضاً أخرى مثل المديح والهجاء والثناء والغزل وما شابه ذلك؟ أو إنّه اتخذ هذا اللون من الحياة ليخدع الناس عن حقيقة مذهبه وما كان في نفسه من كراهية وبغض الإسلام؟ هل كان زهده حقيقياً أم لا؟ في البداية نشير اختصاراً إلى دوافع زهد أبي العتاهية وعوامل ازدهار الزهد عنده وثم نبين حقيقة زهده.

عوامل ازدهار الزهد عند أبي العتاهية

إنّ الشاعر أبا العتاهية نشأ نشأةً وضيعة فاسدة، إذ كان أبوه نبطياً من أهل ورجة وصنعتة الحجامّة وكانت أمه مولاة لبني زهرة ثم لمحمد بن هاشم بن عتبة بن أبي وقاصي وكانت أمّه مولاة لهم يقال لهم أم زيد. (الاصفهانى، ج ٤، ١٩٢٣م: ٧) فأبوان وضيعان ونشأة وضيعة، دفعاه إلى أن يتصل بطائفة المخنثين وبيئات المجان



ويلهو معهم كما يلهون ويشرب معهم الخمر في مجالسهم. فمّرت الأيام بالشاعر إلى أن رأى في منامه آية أتاه غلامه على شعره في عتبة:

اللهُ بَيْنِي وَبَيْنَ مَوْلَاتِي أَهَدْتُ لِي الصَّدَّ وَالْمَعَالَاتِ
مِنْحَتَهَا مَهْجَتِي وَخَالِصَتِي فَكَانَ هِجْرَانُهَا مِكَافَاتِي
هَيِّمَنِي حَبِّهَا وَصَيَّرَنِي أَحَدُوتهُ فِي جَمِيعِ جَارَاتِي

وقال له ما أصبت أحداً تدخله بينك وبين عتبة، يحكم لك عليها بالمعصية إلا الله تعالى؟ يقول أبو العتاهية: فانتبعت مذعوراً وتبت إلى الله تعالى من ساعتى من قول الغزل. (البغدادي، ج ٦، لانا: ٢٥٦)

فترك الغزل والمنادمة واختار لنفسه أسلوباً آخر في الشعر والحياة. ومن هنا نتساءل: ما هو المحرّك المباشر الذي دفعه من حياته الماجنة العابثة إلى حياة زاهدة عابدة؟ ففي تفسير هذا التحوّل تعددت الآراء ومنهم المسعودي الذي قال: إنَّ تحوّل أبي العتاهية إلى الزهد جاء على أثر رفض عتبة الزواج منه، بعد أن كلّمها الرشيد في ذلك، فأنشد قصيدته: «قطعتُ منك حبال الآمال»، ولبس ملابس الصوفية وزهد وتوقّف عن قول الغزل. (المسعودي، ج ٣، ١٩٦٥م: ٢٩٦)

ويذهب بعض الباحثين إلى أنّ أبا العتاهية اتخذ شعر الزهد وسيلة للكسب مستندين إلى وقائع تفيد ذلك، ومنها ما يأتي: يروى أنّه أرسل لأبي نواس، لما قال شعراً في الزهد، من يقول له: إتنى تركت له جميع أغراض الشعر والزهد فنّ، سبقت إليه ووقفت نشاطي عليه، ولن أسمح لأحد سواي أن ينازعني فيه، فوجم أبو نواس لما سمع الرسالة وقال إنّه ليشق على نفسي ألا أعاود القول في موضوع أحببته، ولكن لا سبيل إلى مخالفة أبي إسحاق. (المسعودي، ج ٣، ١٩٦٥م: ٢٩٦)

ومما لا شكّ فيه أنّ نشأته الوضيعة أثراً في تحوّلِهِ إلى الزهادة فقد أراد هذا الفتى المتهتك أن يكفر بالزهد عن أوزار نفسه وبالشعر الزهدى ينفس فيه عن كآبة دفينته وضييق بكلّ أوضاع مجتمعه، فقد نشأ فقيراً، معدماً، متهماً بنسبه وعقيدته وسلوكه، واستطاع بطموحه وتحديّه أن يصل إلى بلاطات الخلفاء ويحيى حياة القصور ويستقطب

من حوله كبار الأصدقاء ومغنيين، ويمحو بهذا ذلك العار الذي ألصق به زوراً أو بهتاناً كما استطاع أن يكنز المال ولكن هاجسه كان أقوى من وضعه القديم والجديد وعقله الرازح تحت وطأة مزاج سوداوى انتهيا به إلى رفض كل ذلك، حين رأى فيه سراباً خادعاً وأحسّ رغم النعيم الذى وصل إليه، بالغبن الاجتماعى الفادح وبجور الحكام وقد عانى هو من هذا الجور، فتكشفت له الدنيا عن عبث مطلق وتفاهة وفكر فى تلك العزلة المنسودة يغنى فيها أحلى ما تاق إليه من معانى الزهد والاعتبار، فتهدأ تلك النفس اللهيفة. (أبوالعنايه، ١٩٨٧م: ٨٨ و ٨٩)

ويقول كفرواى إنّ ذلك التحوّل كانت نتيجة لعاملين: أولهما، نابع من نفسه وعاش معه طوال حياته وثانيهما، خارجى طارىء ساقته الظروف السياسية. (الكفراوى، لا تا: ٣٧ و ٣٨)

فمما لا شكّ فيه أنّ نزعة الزهد لم تكن شيئاً جديداً عند الشاعر بل هى نزعة قديمة عنده جذورها ترجع إلى مبدأ أمره بالكوفة، بعبارة أخرى إنّ جذور هذه النزعة كانت فى داخل شخصية الشاعر منذ صغره وكان لديه الاستعداد الفطرى للزهد والميل إلى التذكير بالموت والقبور على رغم سبيل الشهوات وبكلمة أخرى لم تكن مشاركته لزملائه فى مجونهم أيام شبابه لتقتل فيه ميله إلى الحرص والرزانة. جارا هم ولكن إلى حين، واندفع فى تيار الحياة ولكنّه لم يرخ لنفسه العنان. ولم يلبث أن رأيناه يتراجع عنه مشمئزاً مهيباً بالآخرين أن سلكوا سبيل الرشاد. (المقدسى، ١٩٩٢م: ١٥٣)

وبجانب هذه المؤثرات، أدرك أبوالعنايه عدداً من العباد والزهاد واتصل بحلقاتهم وشعره فى مدح زهاد عبّادان يدلّ على اتصاله بعباد تلك الديار، وتأثره بهم، فنحن نعتقد أنّه قد تأثر بهذه النماذج الطاهرة ونستنتج أنّ العامل الدينى من أهمّ المؤثرات التى دفعته إلى الزهد والتنسك كما كان للخلفاء تأثير فى انصراف الشعر إلى الزهادة؛ فكان للدولة العباسية باعتبارها دولة إسلامية فى فكرتها الأولى أثر فى ازدهار حركة الزهد بصورة عامة، فتراهم يحضون الشعراء على القول فى هذا المجال، على الرغم من حياتهم الفاسدة. فالخليفة المهدي، قد حزن على وفاة ابنته حتى امتنع من الطعام والشراب



فوعظه أبو العتاهية بأبيات وأنشده:

ما للجديدين لا يبلى اختلافهما
يا مَنْ سَلا عن جِيبٍ بعدَ مَيْتَةٍ
كأنَّ كلَّ نعيمٍ أنتَ ذاتِقةٌ
لا تلعبنَّ لك الدنيا وأنتَ ترى
ما حيلةُ الموتِ إلا كلُّ صالحه
وكلُّ غَضٍّ فيهما بالِ
كَمْ بعدَ موتِكَ أيضاً عنكَ مَنْ سألَ
مِنْ لذة العيشِ، يحكى لمعة الآلِ
ما شئتَ مِنْ عِبَرٍ فيها وأمثالِ
أو فما حيلةٌ فيه لمحتالِ

فقال المهدي له: «أحسنت، ويحك أصبت ما في نفسي ووعظت وأوجزت! ثم أمر له لكل بيت بألف درهم.» (الدش، ١٩٦٨م: ١٤٢) فكل هذه المؤثرات تعاونت معا لينصرف أبو العتاهية من حياته اللاهية الماجنة، إلى حياة طيبة زاهدة معظمها بكاء وتضرع وتبتل وابتهاال وتوبة واستغفار والدعوة إلى العمل الصالح والتذكير بالموت والقبر والجنة والنار والعذاب والعتاب والنعيم والجحيم.

الزهد الإسلامي

كان للقرآن الكريم وتعاليمه أثر بالغ في نفوس المسلمين الأوائل، على صعيد الفكر والروح فتحوّلوا من عشق الذات إلى عشق المثل، وتخففوا من ربة المادة إلى ربة الروح وكان النبي (ص) خير مجسد لتلك المثل والتعاليم الإلهية، حين عاشها أولاً، ثم دعا إلى أن يعيشها أقرباؤه وصحابته ومن جملة دعواته، دعوته إلى الوسيطة، إذا التوسط تارة في القرآن، كما في الآية: ﴿لا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسوراً﴾ وتارة على لسانه: «خير الأمور أوسطها». (أبو العتاهية، ١٩٨٧م: ٧٠ و٧١)

هذا النوع من الزهد يدعو إلى العمل الخير والكسب الحلال، زهداً في الحياة لا عن الحياة وإنه زهد إيجابي صريح المصادر، فلم يداخل هذا الزهد أنى مؤثر خارجي، بالرغم من وجود هذا المؤثر على تخوم الدولة الإسلامية الناشئة، لكنّ هذا الزهد لم يبق على صفائه، فقد خولط عند بعض شعراء العصر الأموي، بشيء من مانوية أو بوذية

نتيجة اتساع الفتوح التي جاءت بالموالي من فارس والهند والصين والروم، وهؤلاء كان منهم الزنديق والمانوي والزرادشتي والبوذي، فكان لا بد أن يتأثر بعض شعراء الزهد بمفهوم هؤلاء للكون والطبيعة والله والخير والشر والمعاد. (المصدر نفسه: ٧٢ و٧٤ و٧٨ و٧٩ بتلخيص)

أما في العصر العباسي فإنّ الزندقة والمجون قد شاعا في طبقة محدودة من الناس، كان جمهورها من الفرس، وكانت موجة المجون أكثر حدّة، لكن لم تكن عامة في المجتمع، بل كانت خاصة بالمترفين ومن حولهم من الشعراء والمغنين. كان الوعظ في هذا العصر يلتحم بالقصص للعظة والعبرة. وكان كثير من النساك يحيون حياة زاهدة خالصة بعبادة وتقشف والانقباض عن الاستمتاع بالحياة وملذاتها، انتظاراً لما عند الله من النعيم، وقد حاول بعض المستشرقين أن يربط ربطاً وثيقاً بين زهد هؤلاء النساك وبين زهد الرهبان المسيحيين الذين كانوا منتشرين في العالم الإسلامي، يختلف عن الزهد المسيحي في جوهره، إذ الزهد عند المسيحيين يقوم على أساس من فكرة الخطيئة، والإسلام لا يقرّ بهذه الفكرة من تعذيب الجسم كما حاولوا أن يربطوا بين هذه المقدمات والبوذية والهندية، فالعصر العباسي شهد لونين من الزهد: ١. زهداً إسلامياً خالصاً ٢. زهداً مانوياً مارقاً، وهو الذي يمكن أن يوصل بينه وبين البوذية، إذ المانوية تتأثر بها من قديم وقد مضت الدولة تقاومه وتقاوم أصحابه مقاومة عنيفة وكان من تمام النساك في هذا الزهد المارق المنحرف أن يعيش الناسك من سؤال الناس. (ضيف، ١٩٧٣م: ٨٦ و٨٨ بتلخيص)

حقيقة زهد أبي العتاهية

هل كان أبو العتاهية زاهداً حقاً أم لا؟ وهل أنشد قصائده في الزهد تعبيراً عن أحاسيسه الدينية أم أنشدها رغبة في الفنّ الزهدي فحسب أو إنّه اتخذ هذا اللون من الحياة ليخدع الناس عن حقيقة مذهبه وما كان في نفسه من كراهية وبغض الإسلام؟ وهل كان زهده إسلامياً خالصاً؟



علمنا خلال دراستنا أنّ أبا العتاهية ختم حياته بالزهد ولكنّ الباحثين في تأويل هذا الزهد فريقان، فمن الباحثين من وقفوا موقف الشكّ من زهادته وتنسكه، ومنهم من وجدوا فيه زهداً متهجداً حقاً لم يترك فريضة من فرائض الدين، ولكلّ من الفريقين في موقفهما أدلّة يعتمدان عليها، أما الذين أخذوا جانب الشكّ من زهده فيعتمدون على روايات ذكرتها كتب تاريخ الأدب، ونحن نذكر شذرات من تلك الروايات حسب ما يقتضيه البحث.

يقول أبو الفرج الإصفهاني: «وأكثر شعره في الزهد والأمثال.» ويضيف فيقول: من ناحيته أولى «كان قوم من أهل عصره ينسبونه إلى القول بمذهب الفلاسفة، ممّن لا يؤمن بالبعث ويحتجون بأنّ شعره إنّما هو في ذكر الموت و الفناء و ذكر النشور و المعاد.» ومن ناحية ثانية «كان دائم الحرص، دائم الجمع شحيحاً، تروى في حرصه حكايات كثيرة.» (الإصفهاني، ج ٤، ١٩٢٣ م: ٢ و ٤)

لخصّ أبو الفرج، في قوله هذين، القضية، أكثر شعر أبي العتاهية في الزهد، غير أنّ زهده، كما رأى قوم من معاصريه يقرب من مذاهب الفلاسفة الذين لا يؤمنون بالبعث، أي يقرب من مذاهب الزنادقة، علاوة على أنّه لم يكن صادقاً في دعوته إلى الزهد، إذ إنّ كان بخيلاً، حريصاً على جمع المال. وقال منصور بن عمار: «أبا العتاهية زنديق، أما تروونه لا يذكر في شعره الجنّة ولا النار وإنّما يذكر الموت فقط.» ومن الأدلّة التي قدّمها ابن عمّار قول الشاعر في عتبة:

وكأنّ عتابة من حسنها	دُمِيّة قسّ فقنّت قسّها
يا ربّ لو أنسيتنيها بما	في جنّة الفردوس لم أنسها
إنّ المليك رآك أحـ	سنّ خلقه ورأى جمالك
فَحدَا بقدره نفسه	حورُ الجنان على مثالك

فقد يقول منصور بن عمار في التعليق على البيتين الأوّلين: يتهاون بالجنّة ويتبدّل ذكرها في شعره بمثل هذا التهاون. وفي التعليق على البيتين الأخيرين: أتصوّر الحور على مثال امرأة آدمية، والله لا يحتاج إلى مثال، وأشاع ذلك على لسان العامة، فلقي

منه البلاد.

ويروى أبوالفرج حديثاً لهبه الله بن إبراهيم بن المهدي جاء فيه أن أباه رمى أبا العتاهية في مجلسه بالزندقة، فبعث إليه يعاتبه، فكتب إليه قصيده منها:

تَوَكَّلْتُ بِالْدُنْيَا تَبْكِيهَا وَتَنْتَ - دُبُّهَا وَ أَنْتَ عَنِ الْقِيَامَةِ لَاهِي

إِنِّي رَأَيْتُكَ مَظْهَرَ الزُّهَادَةِ - تَحْتَاجُ مِنْكَ لَهَا إِلَى أَشْبَاهِ

وعرف أبوالعتاهية ما يتهم به، فكان يشكو أمره لأصدقائه ويقول:

فِيَا عَجَبًا كَيْفَ يَعْصِي الْإِي - لَهُ أَمْ كَيْفَ يَجْحَدُهُ الْجَاهِدُ

وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ - تَدُلُّ عَلَيَّ أَنَّهُ وَاحِدٌ

(الإصفهاني، ج ٤، ١٩٢٣م: ٣٤ و ٣٥ و ١٠١ و ١٠٢)

وفى ما يتعلّق بالأمر الثاني، وهو البخل وجمع المال، يروى أبوالفرج:

سَأَلَ ثَمَامَةَ بِنَ الْأَشْرَسِ أَبَا الْعَتَاهِيَةِ، لَمَّا أَنْشَدَهُ:

إِذَا الْمَرْءُ لَمْ يَعْتَقِ مِنَ الْمَالِ رِقَّةً - تُمْلِكُهُ الْمَالُ الَّذِي هُوَ مَالِكُهُ

أَلَا إِنَّمَا مَالِي الَّذِي أَنَا مَنفِقٌ - وَليْسَ لِي الْمَالُ الَّذِي أَنَا تَارِكُهُ

إِذَا كُنْتَ ذَا مَالٍ فَبَادِرْهُ بِالذِّي - يَحِقُّ وَإِلَّا اسْتَهْلِكْتَهُ هُوَالِكُهُ

(أبوالعتاهية، ١٩٦١م: ٢٤٢)

أتؤمن بأن هذا قول رسول الله (ص) وأنته الحق؟ قال: نعم، قال: «فلم تحبس عندك سبعاً وعشرين بدرة في دارك، ولا تأكل منها ولا تشرب ولا تزكي، ولا تقدّمها ذخراً ليوم فقرك وفاقتك؟ فقال: يا أبا معن، والله إن ما قلت لهو الحق، ولكنني أخاف الفقر والحاجة إلى الناس. (الإصفهاني، ج ٤، ١٩٢٣م: ١٦)

وقال البعض إنّه لم يكن صادقاً في الدعوة إلى الزهد، إذ إنّه اتخذ هذا الغرض الشعري رغبة في الفن الزهدي استناداً إلى ما حكاه الحصري عنه قال: دخل أبوالعتاهية على ابنه محمد، وقد تصوّف فقال: ألم أكن قد نهيتك عن هذا؟ فقال ابنه وما عليك أن تعود الخير، فأخذ أبوالعتاهية يؤتبه ويقرعه، ثم قال له: أقبل على سوقك فإنّها أعود إليك وكان ابنه بزّازاً.



وأيضاً في هذا المعنى ما نقله ابن منظور عن مخلد الطائي قال: «جاءني أبو العتاهية فقال لي: إنَّ أبانواس لا يخالفك وقد أحببت أن تسأله أن لا يقول في هذا الزهد شيئاً، فإنِّي قد تركت له المديح والخمر والهجاء والرقيق وما فيه الشعراء وللزهد شوقي، فبعث إلى أبي نواس فجاء إليَّ وأخذنا في شأننا فقلت لأبي نواس: إنَّ أبا إسحاق قد عرفت جلاله وتقدّمه وقد أحبَّ أنك لا تقول في الزهد شيئاً فوجم أبونواس عند ذلك وقال: يا أبا مخلد قد قطعت علي ما كنت أحبُّ أن أبلغه من هذا... ولا أخالفك فيما رغب إليه. (ابن منظور، ١٩٢٧م: ٧٠) بهذا نستطيع القول إنّه قد اتخذ الزهد طريقة فنيّة لكي ينفرد بها عن بقية الشعراء.

ولو تدبّرنا في أدلة هذه الطبقة من مخالفيه نجد أن مردّ الاتهامات مبنى على ما يلي:

١. سيرته الأولى ٢. حرصه على المال ٣. تبرّم الناس بالوعظ والإنذار

فلنناقش هذه الروايات ونبيّن ما وصل إليه بحثنا عن حقيقة زهده مشيرين إلى الروايات التي تؤيد صدق زهادته ومدى إيمانه بالإسلام والقرآن والحديث الشريف. أما سيرته الأولى، فهي الصفحة الأولى من حياته، ولكنّه عدل تلك الحياة الفاسدة إلى الزهادة، فلبس الصوف وترك الحضور والمنادمة والقول في الغزل وذلك «لما قدم الرشيد الرّقة.» (الإصفهاني، ج ٤، ١٩٢٣م: ٦٧) فالصفحة الثانية، معظمها تبّتل وتضرع وتهجّد وبكاء على ماضيه الماجن، فنسمع إحدى مناجاته:

فياذُ ليّ ويا خَجلي إذا ما قالَ لي ربّي
أما استَحْييتَ نَعصيني ولا تخشَى من العُتَب
فَتُحِبُّ ممّا جَنيتَ عسي تعودُ إلى رضى الربِّ

(أبو العتاهية، ١٩٦١م: ٤٠)

ومما يدلّ على صحة انصرافه من المجون إلى الزهد والتّشغف وترك الغزل ما نقله أبو الفرج الأصفهاني عن هارون بن مخارق، قال: حدّثني أبي قال: جاءني أبو العتاهية

فقال: قد عزمت على أن أتزوّد منك يوماً تهبه لى متى تنشط؟ فقلت: متى شئت فقال: أخاف أن تقطع بى فقلت والله لافعلت وإن طلبنى الخليفة، فقال: فيكون ذلك فى غد فقلت أفعل فلما كان من عند باكرنى رسوله فجئته فأدخلنى بيتاً نظيفاً، فيه فرش نظيف ثم دعا بمائدة عليها خبز سميد وخلّ وملح وجدى مشوى، فأكلنا منه ثم دعا بمسك مشوى فأصبنا منه حتى اكتفينا ثم قال: غنّنى فى قولى:

أحمد قال لى وما يدرى أتحبّ الغداة عتبه حقاً
فغنّيته وهو يبكى وينسج، ثم يشرب قدحاً آخر ثم قال غنّنى: فديتك فى قولى:
خليلى ما لى لاتزال مضرتى تكون مع الأقدار حتماً من الحنم
فغنّيته إياه، ومازال يقترح على كل صوت غنّى به فى شعره، فأغنيه ويشرب ويبكى حتى صار العتمة، فقال: أحب أن تصبر ما أصنع فجلتُ فأمر ابنه وغلّامه، فكسرا كل ما بين أيدينا من النبيذ وآلته والملاهى ثم أمر بإخراج كل ما فى بيته من النبيذ وآلته، فأخرج جميعه فمازال يكسره ويصبّب النبيذ وهو يبكى حتى لم يبق من ذلك شىء، ثم نزع ثيابه واغتسل ثم لبس ثياباً بيضاً من صدف ثم عانقنى وبكى، ثم قال السلام عليك يا حبيبى وفرحى من الناس كلّهم سلام الفراق الذى لا لقاء بعده وجعل يبكى، وقال: هذا آخر عهدى بك فى حال تباشر أهل الدنيا. (الإصفهاني، ج ٤، ١٩٢٣م: ١١٣ و ١١٤)

وهذه الرواية تدلّ على أنّ الشاعر تاب من حياته الأولى، وترك سيرته الماجنة وختم حياته بزهادة؛ أما حرصه على المال وإن يكن بعضهم قد لاحظوا أنّ الشاعر يأمر بالحق لايفعله، فكان حريصاً على جمع المال فى الوقت الذى كان يدعو فيه إلى الزهد، وقد تحدث عن مقت الله لهذا الإنسان، فقد أجاب هو عن ذلك، كما مرّ بنا، بأنه كان يخاف الفقر والحاجة للناس، وقد يكفى هذا لفهم الحرص، فليس أمر من الفقر وحاجة الناس وبخاصّة للإنسان الكريم الذى عاناها، وليس لديه أى أمان منهما فى زمان «إذا رمى لمصيب» وقد عانى هو من هذا الزمان، فكلمه بلسان شاعر وخطيب، وفى هذا يقول:

إنّ الفناء من البقاء لقريبٌ إنّ الزمان إذا رمى لمُصيبٌ



إِنَّ الزَّمانَ لِأَهلهِ لِمُؤدِّبٍ لو كان يَنْجَعُ فيهِمُ التَّأديبُ
 صِفَةُ الزَّمانِ حَكيمَةٌ وَبليغَةٌ إِنَّ الزَّمانَ لِشاعِرٍ وَخَطيبُ
 وَلقد يَكَلِّمُكَ الزَّمانُ بِالسُّنِّ عَرَبِيَّةٍ وَأَراكِ لَسْتَ تُجيبُ

(أبو العتاهية، ١٩٦١م: ١٩ و ٢٠)

كما أن التكسب بالشعر في تلك الفترة وسيلة من وسائل الحصول على المال، والزهد الإسلامي لا يمنع صاحبه من الأخذ بالسعي وبالأَسباب في الحصول على المال والرزق، وكان التكسب بالشعر سبباً من تلك الأسباب التي ينال بها الفرد الأجر من الخلفاء والدولة.

وعلاوة على هذا كله فالشاعر لا يدعى أنه قد يسس الوصول إلى المرتبة العليا من النقاء والصفاء، وإنما يقول إنه إنسان عادي، تتمادى نفسه بالهدى، فيسعى إلى الحد من تماديها، والعدول بها إلى الطريق القويم، فرغبته دائماً ممزوجة بزهادته، كما يقول، وهو دائم باق، في جهاد للنفس دائم كما نقرأ في قوله:

أَلا مَنْ لِنَفْسِي بِالهُوى قَد تَمادَتِ إِذا قَلتَ قَد مالَتَ عَنِ الجِهلِ عادتِ
 تَزاهَدتُ في الدنِيا وَإِنِّي لِرِاغِبٍ أرى رِغبتِي مِمزوجةٌ بِزَهادَتِي

(المصدر نفسه: ٤٥)

فهو إن كان حريصاً لم يكن شديد الحرص، حيث نشك في صدق زهدياته، لأن الزهد الحقيقي لا يمنع صاحبه من أن يعيش وإن يجمع المال.

هل كان زهده إسلامياً

ويرى الباحثون كما قلنا في السابق أنه قد ضجر الناس بوعظه وإنذاره وكثرة ذكره الموت والقبر والفناء والدمار والخراب، كما قيل فيه إنه زنديق، أما ترونه لا يذكر في شعره الجنة ولا النار وإنما يذكر الموت فقط. فحكّموا عليه وقالوا: إنه لم يكن زاهداً إسلامياً حقاً.

ويرى شوقي ضيف، من المحدثين، أن معاصري أبي العتاهية، تشككوا في هذا الزهد

الذي طرأ عليه، وردته كثرتهم إلى عناصر مانوية، حتى أوشك حمدوية صاحب الزنادقة المانويين أن ينزل به العقاب الصارم الذي كان ينزله بأمثاله، لولا أن موّه عليه بالعود لحجامة الفقراء والمساكين، ويستشهد باتهام منصور بن عمار له بأنه زنديق لأنه يكثر من ذكر الموت في شعره، ولا يذكر الجنة والنار، ويرى أن هذه ملاحظة دقيقة، ويذكر بأن: «المعروف عن المانوية، أنهم كانوا يدعون للزهد في الدنيا والعمل للآخرة، كما كانوا يدعون إلى ظاهر حسن كاجتناب الفواحش، ومن هنا يختلط الموقف على من يقرأ أشعار أبي العتاهية الزاهدة.»

وينتهي ضيف إلى القول: «فهو ليس مانوياً ثنوياً، يؤمن بأن للعالم إلهين كما ظنّ ابن المعتز وبعض معاصريه، إنما هو مانوى من نمط جديد؛ إذ يمزج بين المانوية والإسلام، إلا إذا كان موّه عن مانوية الخالصة بادعائه وحدانية ربّه.» ويرى ضيف، ليؤيد ما ذهب إليه، أن قصيدة أبي العتاهية: «يا من تشرف بالدنيا وزينتها» تصوّر الناسك في صورة بوذا المشهورة، وهذا ما سبق للمستشرق غولد تسيهر أن قاله.

وقد ناقش الكفراوى هذا الرأى وردّه، كما مرّ بنا؛ ويفسّر ضيف نزعة البخل عند أبي العتاهية بمانويته، إذ إن المانوية كانوا يؤمنون بأن المانوى الصادق ينبغي أن يعيش على المسألة. (ضيف، ج ٢، ١٩٧٣م: ٢٤١ و ٢٤٣)

أما بالتدبّر في مفاهيمه الشعرية في هذا المجال، فنصل إلى رأى جديد فى حقيقة زهده. ويرى غير باحث أنّ مصادر زهده إسلامية خالصة. كما يقول عبدالله التطاوى: بدأ زهد أبي العتاهية إسلامياً يقوم على أساس من التقشف والدعوة إلى التقوى والورع. (التطاوى، لاتا: ١٤٣)

ونحن لانرفض تأثيره ببعض فلسفات وعقائد قديمة مختلفة، فقد رأينا يعيش فى بيئة العلم والمعرفة والتثقف عن طريق سماع أو معايشة أو مدارس لكل ما كانت تعجّ به الكوفة وبغداد وقصور الخلفاء المهدي، الهادي، والرشيد من تيارات فكرية وجدل كلامى وعلوم وافرة وفنون راقية وهو تغير بكلّ ذلك، ويشارك متأثراً بتلك التيارات لاسيما المانوية والبوذية استخدم ما فى الثقافات الأجنبية لتدعيم فكرته فى الموت والحياة.



(أبوالعتاهية، ١٩٨٧م: ٣٣)

وهو يعين أهل العقل والدين والتقوى، ويبعثهم على الزهد فى الدنيا، ويذكرهم بفقد الموت وما بعده من أمر الموت وما فيه من موعظة وتذكرة بالغة راسية، عسى أن تلين بها القلوب القاسية. (فيصل، ١٩٦٥م: ٢٦)

ويقول خليف: «حديث أبى العتاهية عمّا بعد الموت يدور كلّ فى جو إسلامى خالص، ويستمرّ معانيه وأفكاره مما ورد عن هذا الموضوع فى القرآن والحديث. ولهذا نلاحظ أنّ الميزة التى تميز شعر أبى العلاء حين كان يتحدّث عن مشكلة ما بعد الموت، تختفى كلياً من شعر أبى العتاهية ليحلّ محلها الإيمان الدينى المطمئن واليقين الثابت الذى يستمد ثباته من الدين، لا من العقل.» (بهجت، لاتا: ٧٧)

وأما ما يدلّ على اقتباس مفاهيم زهده من القرآن الكريم: «كلّ نفس ذائقة الموت» (آل عمران: ١٥٨)، «إنما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة» (النساء: ٧٨)، «نحن قدرنا بينكم الموت»، «قل إنّ الموت الذى تفرّون منه فإنّه ملائكم» (الجمعة: ٨) ومن الحديث الشريف: يقول النبى: «أكثروا ذكر هادم اللذات، الموت وأكثروا ذكر الموت، فإنّه يمحص الذنوب ويزهد فى الدنيا.» (فيض كاشانى، ج ٨، لاتا: ٢٣٩) و«كفى بالموت واعظاً» ومن كلام الإمام على بن أبى طالب (ع): «دلّ قلبك بذكر الموت» (المصدر نفسه: ٢٤١)

فتدلنا الآيات القرآنية، والأخبار الواردة على أنّ هذه المفاهيم مقتبسة من الإسلام ولا غيره. ولا بدّ من واعظ أو وعّاظ فى كلّ عصر وفى كلّ حال يذكرون الإنسان بالرسالة التى يحملها، حيث لا يغفل من واجبه الإلهى ومصيره نحو الموت والحساب والعتاب. وحينما ينادى أبوالعتاهية الإنسان نحو خالقه ويذكر القبر والبعث والتخويف بيوم الحساب قصده، تحطيم القيود المادية التى كانت نتيجة أنانيته.

ثم الأخلاق والحكمة، يعرضها أبوالعتاهية فى معرض دينى فيوصى بطاعة الله وتقواه، ويحثّ على الصبر والصدق والرفق والقناعة وهو يعتقد أنّ هذه الدنيا ليست سوى آمال ضائعة وسراب خادع وخيال سريع التلاشى لا حلاوة فيها. (الفاخورى، ج ٢،



١٩٩١م: ٧١٧ و٧١٨)

هل كان زاهدا متشائما

ويرى بعض الباحثين أنّ أبا العتاهية بشعره ينشر على الحياة ظلّاً قائماً ويجعلك تحيا في جوّ من التشاؤم المرير أمام القبور وما تحتويه من هياكل ومن جماعهم وفي ظلمة القبر يتساوى الغنى والفقير والحقير والشجاع والجبان. (جماعة من المؤلفين، ١٩٦٤م: ٦٦٠) ويرى شوقي أنّ أبا العتاهية يسود زهدياته تشاؤم أسود حزين. (ضيف، لاتا: ١٧٠) ويؤيد هدارة تشاؤمه ويقول: وواضح من عناصر شعر أبي العتاهية الزهدى أنّ التشاؤم يظّله بروحه الكئيبة. (هدارة، ١٩٩١م: ٣٠) أما برغم نظراته في الدنيا وأمورها وتشاؤمها القليل لجو الحاكم، أشعاره في الزهد والمواعظ والحكم لا مثل لها، كأنها مأخوذة من الكتاب والسنة وما جرى من الحكم على السنة سلف هذه الأمة. والذين يتهمونه بالتشاؤم ويحكمون عليه بقتل روح الابتكار والعمل اعتماداً على هذه الأبيات:

لدوا للموت وابنوا للخراب	فكلّكم يصير إلى تَبَاب
لِمَنْ نبى ونحن إلى تراب	نصير كما خلّفنا من تراب
ألا يا موت لم أر منك بُدّاً	أتيت وما تحيف وما تُجابي

(أبو العتاهية، ١٩٦١م: ٤٦)

حينما نتأمل في مصادر شعره هذا، يبدو لنا أنه اقتبس هذه المفاهيم من المصادر الإسلامية، فلو نظر في نهج البلاغة نجد ما يعادل هذه المفاهيم لفظاً ومعنى. مثل قوله (ع): «إن لله ملكاً ينادى كل يوم لدوا للموت وأجمعوا للفناء وابنوا للخراب.» (نهج البلاغة، الجزء الرابع: ٥٤٦)

وأيضاً له (ع): «بادروا الموت الذي إن هربتم منه أدرككم، وإن أقمتكم أخذكم، وإن نسيتموه ذركم.» (المصدر نفسه: ٥٥٨) فلا شك أنّ مصادر زهده إسلامية خالصة، ثمّ إنّه اهتمّ بأمور الناس ولاسيما الفقراء ولما رأى الفوارق الاجتماعية بين الناس ثار على الأغنياء والطبقات المترفة، ويخاطب في شعره الناس العاديين وأشعاره في هذا المجال



تحدّث مباشرة عن الطغيان الذي ساد من بعد النبي محمد (ص) وعن الشرائع التي درست، والجوع، والعري، فكأنّه بهذا كان يمثّل صرخة الناس العاديين المقهورين الذين لا يجدون مكانهم الذي يطمحون إليه، وإن كانوا مثله من النوابع النابهين، ف«الذلّ» قيد أزلى لا فكاك منه، ومن هذه النماذج الشعرية نذكر:

فَأَمَّا الَّذِي قَد مَاتَ وَالذِّكْرُ نَاشِرٌ	فَمَيِّتٌ لَهُ دَيْنٌ بِهِ الْفَضْلُ يَنْعَتُ
وَأَمَّا الَّذِي يَمْشِي وَقَد مَاتَ ذِكْرُهُ	فَاحْمَقٌ أَفْنَى دِينَهُ وَهُوَ أَمَوْتُ
وَمَا زَالَ مِنْ قَوْمِي خَطِيبٌ وَشَاعِرٌ	وَحَاكِمٌ عَدَلٌ فَاصِلٌ مُتَثَبْتُ
سَأَضْرِبُ أَمْثَالاً لِمَنْ كَانَ عَاقِلاً	يَسِيرُ بِهَا مَنَى رَوِيٌّ مُبَيَّتُ
وَحَيَّةٌ أَرْضَ لَيْسَ يُرْجَى سَلِيمُهَا	تَرَاهَا إِلَى أَعْدَائِهِ تَفَلَّتُ

والذين قالوا إنّه لا يؤمن بالبعث، وإنّ شعره ومواعظه إنما هي ذكر الموت، قد بان شعره لمن طالعه وعنى به كذبهم وافتراء وهم لما فيه من التوحيد وذكر البعث والإقرار بالجنة والنار والوعد والوعيد وبرهان ذلك فيما نوره من أشعاره:

أذْكَرُ مَعَادِكَ أَفْضَلَ الذِّكْرِ	لَا تَنْسَ يَوْمَ صَبِيحَةِ الْحَشْرِ
يَوْمَ الْكِرَامَةِ لِلْأَلَى صَبَرُوا	وَالْخَيْرُ عِنْدَ عَوَاقِبِ الصَّبْرِ
فِي كُلِّ مَا تَلْتَذُّ أَنْفُسُهُمْ	أَنْهَارُهُمْ مِنْ تَحْتِهِمْ تَجْرَى
أَخَى مَا الدُّنْيَا بَوَاسِعَةٍ	لِمَنْي تَلْتَاجُ مِنْكَ فِي الصُّدُورِ
تَرْتَاخُ مِنْ عِبْرِ إِلَى سَعَةٍ	وَتَفْرُ مِنْ فَقْرٍ إِلَى فَقْرٍ
أَكْثَرَتْ فِي طَلْبِ الْغِنَى لَعِبَا	وَعِنَاكَ أَنْ تَرْضَى عَنِ الدَّهْرِ
وَالْخَيْرُ مَالٌ أَنْتَ كَاسِبُهُ	مَا كَانَ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ ذَخْرِ

نفهم من هذه الأبيات أنّه يأمر الناس بالكرامة والصبر والتقوى تجاه اللذات الدنيوية بما يروا في الآخرة من النعمات الوافرة والإنسان في الدنيا كظمان في قفار خالية، يعني الغناء الواقعي يكون في الآخرة بما يذخر في خلدة الدنيا للآخرة، ويبقى عند الله ويرى حصوله ونتائجه. (فيصل، ١٩٦٥م: ٣٧ و ١٧٢ بتخليص)

وكذلك يرى أنّ الدنيا مزرعة الآخرة، ويحصد الزرع منها ما زرع فيها من عمله

الصالح فيقول:

وأعلم بأنك مسؤول ومفتحص

عما عملت ومعرض على العمل

(أبوالعتاهية، ١٩٦١م: ٢٥٦)

فبادر بالصالح وأنت حي

لعلك أن تنال به رضاه

(أبوالعتاهية، ١٩٦١م: ٣٥٦)

والشاعر يعجب ممن يقرأ في كتاب الله ما يأمر به ولا يعمل بذلك، وهو يزعم أنه مسلم ويروى أن الله بين مقت هذا الإنسان الذي يأمر بالحق ولا يفعله فيقول:

يا ذا الذي يقرأ في كتبه

ما أمر الله ولا يعمل

قد بين الرحمن مقت الذي

يأمر بالحق ولا يفعل

من كان لا تشبه أفعاله

أقواله فصمته أجمل

(المصدر نفسه: ١٦٩)

ويبدو البحث عن عناصر مانوية، في رؤية الشاعر وشعره، نوعاً من السعي إلى إثبات تهمة مقررة سلفاً، كأنه ينبغي أن يكون لكل ظاهرة جديدة في الشعر العربي أسبابها الخارجية. وقد بين كفراوي، تهافت القول بأن بوذا هو المقصود في إحدى قصائده، وحدد المعنى الحقيقي فيها، وهو الإمام موسى الكاظم (ع). وبين السيد محسن الأمين أن الشاعر يوظف الموت، بوصفه قوة قاهرة في الوعظ، وهذا هو لأجدي، علاوة على أنه، أي الموت، كان مائلاً، كما لاحظنا آنفاً في أعماق ذاته منذ البدايات ومثل، في ما بعد، دور المخلص من هذه الدنيا التي تقتل أزواجها، المفضى إلى حياة ثانية، فيها الجنة، ولهذا فهو يخاطب «خاطب» هذه الدنيا فيقول له:

يا خاطب الدنيا إلى نفسها

إن لها في كل يوم عويل

ما أقتل الدنيا لأزواجها

تعدُّهم عدداً قتيلاً قتيل

(أبوالعتاهية، ١٩٦١م: ١٧٣)

أسئل عن الدنيا وعن ظلها

فإن في الجنة ظلاً ظليل

وفي هذا القول رد على من يذهب إلى أنه لم يذكر البعث والحياة الثانية والجنة. وهذا



الرأى لا يصدر عن استقراء شعر الشاعر، وإنما يعيد ما قيل ذات مرّة، من دون العودة إلى ديوان الشاعر للتأكد من ذلك، ومن نماذج ذكره للبعث والحساب، تقدّم على سبيل المثال:

ألا إن يوماً أدان كما دنت ليحصى كتابي ما أسأت وأحسنْتُ
ألم تر أنّ الأرض منزل قلعه وإن طال تعميري عليها وأزمنتُ
فلو أنّا إذا متنا تركنا لكان الموت غاية كلِّ حي
ولكنّنا إذا متنا بُعثنا ونُسأل بعده عن كلِّ شيءٍ

(المصدر نفسه: ٤٦)

النتيجة

نستنتج من السطور السابقة، أنّه كان في نفس أبي العتاهية جذور قديمة من التأثر بالزهد والميل إلى ذكر الموت على رغم نشأته الماجنة وحياته العابثة. وزهده الحكيمه كانت في أصل طبعه ومزاجه وكانت ردّة فعله من خطيئاته طول حياته وما يراه من ظلم وجور وفتك زمانه وزهدياته على الإجمال موجّه إلى العقل وأقرب إلى الخطب المنبرية البليغة ويجمع بين دفتيه شعراً كثيراً في التذكير بيوم القيامة وذكر الجنة والنار ولهذا الجانب من شعره أهمية، والذين عدّوا زهده غير إسلامي ومانويّاً اقتصاراً على التذكير بالموت ودم الدنيا، قد أخطؤوا، وإنّما يعيد ذلك من دون العودة إلى ديوان الشاعر للتأكد من ذلك كما كان هذا الأمر نتيجة حسد بعض معاصريه، ففكر أبو العتاهية في أحوال الحساد، ورأى فيهم ظلماً وحسداً وبلاءً.

المصادر ومراجع

القرآن الكريم.

نهج البلاغة.

آذر شب، محمد علي. ١٣٨٢ش. تاريخ الأدب العربي في العصر العباسي. تهران: انتشارات سمت.

ابن منظور. ١٩٢٧م. أخبار أبي نواس. القاهرة: لانا.

- أبو العتاهية، خليل شرف الدين. ١٩٨٧م. الموسوعة الميسرة. بيروت: دار ومكتبة الهلال.
- أبو العتاهية، خليل شرف الدين. ١٩٦١م. الديوان. بيروت: دار المكتبة العلمية.
- الإصفهاني، أبو الفرج. ١٩٢٣م. الأغاني. ج ٤. القاهرة: دار الكتب.
- البغدادي، الخطيب. لاتا. تاريخ بغداد. ج ٦. بيروت: دار الكتاب العربي.
- بهجت، مصطفى. لاتا. التيار الإسلامي في الشعر العباسي. بغداد: وزارة الأوقاف والشؤون العربية.
- التطاوي، عبدالله. لاتا. القصيدة العباسية. القاهرة: مكتبة الغرب.
- جماعة من المؤلفين. ١٩٧٤م. المفيد في الأدب العربي. منشورات التجدي للطباعة والنشر.
- الدهش، محمود. ١٩٦٨م. أبو العتاهية حياته. القاهرة: دار الكاتب العربي.
- ضيف، شوقي. ١٩٧٣م. تاريخ الأدب العربي (العصر العباسي الأول). ج ٢. القاهرة: دار المعارف.
- ضيف، شوقي. لاتا. الفن ومذاهبه في الشعر العربي. القاهرة: دار المعارف.
- خفاجي، عبد المنعم محمد. ١٩٨١م. تاريخ الأدب في العصر العباسي الأول. الأزهرية: مكتبة الكليات.
- الفاخوري، حنا. ١٩٩١م. الموجز في الأدب العربي وتاريخه. بيروت: دار الجبل.
- فيصل، شكرى. ١٩٦٥م. أبو العتاهية؛ أشعاره وأخباره. دمشق: مكتبة دار الملاح.
- فيض كاشاني، محسن. لاتا. المحجة البيضاء. قم: مطبعة النشر الإسلامي.
- الكفراوي، محمد عبد العزيز. لاتا. أسطورة الزهد عند أبي العتاهية. القاهرة: دار النهضة مصر.
- المسعودي، مروج الذهب. ١٩٦٥م. القاهرة: دار الأندلس.
- المقدسي، أنيس. ١٩٩٢م. أمراء الشعر العربي في العصر العباسي. بيروت: دار العلم للملايين.
- هادي بور نهزمي، يوسف. «الزهد الإسلامي وتطوره إلى التصوف منذ القرن الثاني حتى القرن الرابع الهجري». فصلية التراث الأدبي. صيف ١٣٨٨ ش. العدد ٣. صص ٢٢٨-٢١٧.
- هدارة، مصطفى. ١٩٩١م. اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري. مصر: نشر دار المعارف.

